قصة قصيرة

# المثقب

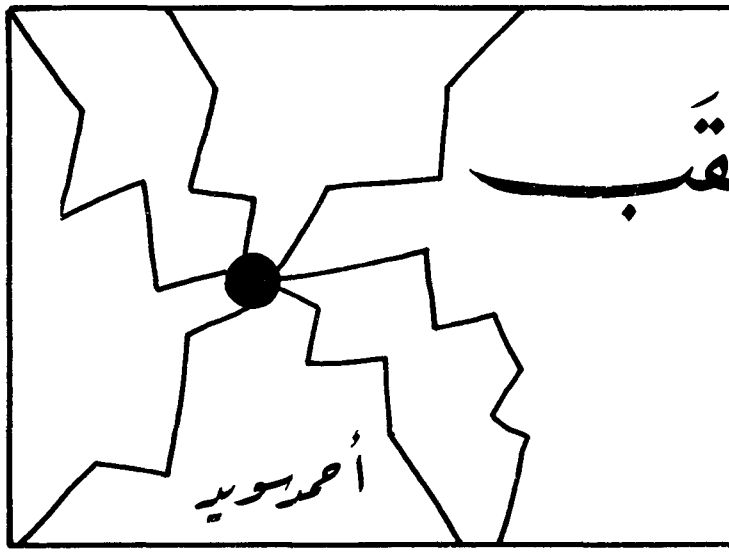


مثقب خفي ينخر في رأسه. يتوغل فيه حتى النخاع الشوكي. يشعر أن نخاعه يتناثر داخل جمجمته، وتعلق شظاياه الدقيقة بالجدار العظمي الصلب. وبحركة لاإرادية يحضن رأسه. يعصره بين راحتيه قليلاً ثم يهزه بعنف ويتمتم:

- الحمد لله. يخّيل إلي أن المثقب اللعين قد هدأ.

... ويمدّ رجليه على الطاولة الصغيرة أمامه، بشيء من الاسترخاء الناعم المريح، ويحلم بغفوة قصيرة... ولو لثانية فقط!

لعنة الله على الشيطان:

ها هي تقف قرب محطة للوقود على الشارع الفسيح. في تلفُّتها حذر وقلق وخوف، حقيبتها البيضاء يقذفها التوتر لحظة بعد لحظة من يد إلى يد، ونسمة خفيفة تعابث شعرها، فتزجرها بضيق وتبرم، وتعيد الأصابع المتشنجة الخصلة السوداء إلى مستقرها الأمين!

تتوقف السيارة البرتقالية بمحاذاتها. ينفتح الباب. تنزلق هي إلى جانبه. يرحّب بها بهمس شبق، ثم تطير السيارة لتغيب في..

... ويمعن المثقب اللعين في تعذيبه:

الشاب التريفولتي سيحملها إلى عشّ الغرام حتماً. ليته يطير في أثر السيارة ليدهمها في وكر الخيانة، ثم ليفلق رأسيهما معا بضربة عنترية، ويخرج إلى أقرب مخفر وهو يصيح:

- لقد انتقمت! لقد انتقمت!

* * *

ينتفض مذعوراً. يمسح وجهه براحته. استغفر الله العظيم. استغفر الله العظيم. زوجتي ملاك يا شيخ. أعرفها جيدا. إنها تكاد تعبدني. لو غبت عنها ساعات تستقبلني حين أعود وكأن عمر الفراق بيننا دهر أطول من الدهر. من أين يأتيني الشيطان الرجيم بهذه الهواجس؟.. اذهب عني خزاك الله!

... ويرنّ الهاتف. تخطف هي السماعة.

- آلو.. صباح الخير.

ثم يرين الصمت. تخرس. ملامحها بلهاء خالية من أي تعبير، ولكن وشوشة السماعة تستمر.. وشوشة غامضة غير مفهومة، تحزّ في أعصابه حتى لتكاد تقطعها.

يسألها:

- مَن الهاتف؟

فتعيد السماعة إلى مكانها بالسرعة الإملائية ثم تجيب كالحالمة:

- بالغلط!

... هو يعرفها لا تكذب. بلى تكذب بعض الأحيان كذبات بيضاء بريئة تتعلّق بثمن ثوب مثلا أو حذاء أو حلية.. كم تحب هذه الأشياء. ولكنها في القضايا الخطيرة لا تكذب.

المثقب اللعين يستأنف عمله:

لماذا سكتت إذن واستمر الآخر يوشوش على الخط؟

لا بد أنه هو... يواعدها. يحدّد لها مكان اللقاء فتصمت هي، ويأخذها حلم الوعد وتتساقط من شفتيها أكذوبة غير بريئة:

- بالغلط!

يسيطر على أعصابه على الرغم من إلحاح المثقب اللعين في حفر نخاعه. مهلا. سأتصرف بدهاء وتعقّل. سأمزق قناعها هذه المرة. لا بد أنها ستخرج للموعد. سأوهمها أني ذاهب إلى عملي ثم أترقّبها حتى اذا خرجت لحقت بها.. ولتدوّ الفضيحة بعد ذلك في كل المدينة!

سأضع اصابعي العشرة في عينيها فقط. سأفقأ العينين السوداوين اللتين كان يخيل لي دوما أنهما تهطلان طهرا وبراءة ثم أتركها لعذاب الظلام الأبدي، وللألسن النهاشة التي تعفّ عن اللحم الحي.

.. لا. لا. لن أفعل فأنا لست فضائحيا بطبعي. لم لا أداري الفضيحة ودويّها بأكره الحلال، وذلك أريح؟!

... ... ويتوقّف المثقب كأنه إنما قنع بالحل السلميّ.

ويمضي النهار بطوله، ولا تخرج المخلوقة من منزلها، ويعود هو في المساء منهكا لطول ما تسكّع مترقّباً، فتستقبله العينان السوداوان اللتان صمم على فقئهما، تستقبلانه بكل ما في الحب، من احتفالية عفوية بكل ما فيه من شوق ولهفة..وحنوّ، وحرارة.

وما يكاد يشلح جثته المنهكة على الكنبة حتى يئزّ نذير الخراب: فيصمم على أن يردّ هو هذه المرة. يسبقها إلى السماعة يرفعها ثم يصمت وعيناه على ملامحها تستقرئان وترصدان انفعالاتها. فالملامح تفضح. والعين كذلك فضاحة ولكن ما يحيره أن ملامحها ظلت صفحة بيضاء شفافة بريئة، لم يقرأ فيها سوى اللامبالاة والنقاوة، وأن عينيها كانتا تبُثان إليه بوَلَه رسالة هوى صاف، غامر العذوبة.

ونطق أخيراً:

- آلو. آلو. آلو...

يا للنذل الخسيس! إنه لا يجيب. لعله لم يكن يتوقع أن يسمع صوته هو بدلا من صوتها. لقد خرس الكلب، وماءت هي:

- قد يكون الرقم مغلوطاً يا حبيبي.

يدير لها ظهره. يكزّ على أسنانه. يطحن تحتها انفعاله وحنقه، وهمسة مكتومة مهروسة:

- وقد يكون هو يا عاهرة..

★ ★ ★

لعنة الله على الشيطان ألف مرة. لَمَ يركبني الوسواس الخناس بمثل هذا الإصرار؟ ويلهب جنبي بمهازيه النارين؟

لِمَ يحلو له أن يقطف رأسي كل عشية، ويضعه على ركبتيه، ويفتح الغطاء ليحشوه بالظنون والأرق والهلوسة؟ ؟ وبما يشاء من ضروب التنغيص؟

★ ★ ★

لِم لا أتمرد عليه وأطرده...؟ لم لا أتمرد؟

★ ★ ★

الحمد لله. لليوم الثالث على التوالي ينجح في تحقيق تماسكه النفسي وصدّ غزوات الشيطان، ولذا يشعر الليلة بالطمأنينة تغمر قلبه، وبفرح مجهول المنابع يتدفّق، فيملأه بالسكينة الداخلية والأمان المطلق.

.. ولقد قرأ في عينيها هذه العشية عتاباً ونداء. أما العتاب فقد كانت، كما قرأ في عينيها، لا تصرّ عليه، لأنها تعّودت أن تجد لديه العذر دائما لعزوفه وصدّه، وأما النداء فكان صاخبا جدا لدرجة فوق كافة الاحتمال عنده.

ولكنه عندما تسلل إلى سريرها في نهاية السهرة قبّلته برقة، ومسحت شعره بحنان، ثم تحولت عنه قليلا.. وفجأة انتصب الشيطان بينهما مزبداً معربداً، وتحول المثقب في رأسه إلى مطرقة وحشية فكاد يصيح ليمزق كل أسرار الليل:

- قولي إنك مرتوية يا خائنة!

ولكنه أطبق فكيه على لسانه المشتعل في اللحظة الأخيرة عندما تناهى إليه همسها يقطر صدقاً ورقة:

- أعذرني يا حبيبي فأنا مريضة.

★ ★ ★

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة ليلا عندما أدار على مهل مفتاحه في قفل الباب. دخل على روؤس أصابعه. لا بد أنها نائمة، فهي لا تطيق السهر وحيدة. لم يجدها في سريرها. بدأ المثقب يحفر بضراوة في رأسه. فتّش كل زاوية في البيت. ازداد ضغط المثقب. يا لغبائه! ألم يقل لها عندما توجّه إلى عمله بعد الغداء إنه سوف يتأخر هذا المساء؟... ولقد التقطت هي، بلا شك، الفرصة السانحة وخرجت إليه حتما.. إلى ذلك الوغد المجهول الذي طالما ودّ لو يلتقيه ليفكّ رقبته، وينتزع قلبه الخبيث فيشكّه على رأس خنجره ويخرج به إلى الشارع صارخا:

- هذا هو غريمي!

كيف تخرج «حرمه المصون» دون أن تترك له، كما تعوّدت، إشعارا بمكان وجودها؟ لقد علقت إذن في الفخ. يكاد المريب أن يقول خذوني. علقت الخائنة. لن تفلت هذه المرة من قبضة الانتقام.

...المثقب يحفر في رأسه بعنف. يحفر، ويحفر في أعماق النخاع، ويمتدّ لسانه الناري فيلهب دمه وشبكته العصبية بكاملها. بهذه العصا سأفلق رأسها. هه. هذا وجهها اللعين يطلّ من مرآتها. إلى الجحيم يا مرآة السافلة. وتهاوى الزجاج بخلبة فضائحية. هذه صورتها معلقة فوق السرير. إنزلي ايتها الخائنة، مكانك ليس هنا. مكانك في المدفأة. هذه خزانتها. حسناً. لن تتأنق له بعد اليوم لن اترك لها أثراً في هذا البيت.. سأحرق..

ورن الهاتف بصوت أجش مذعور. رفعت يده المرتعشة السماعة. جاءه صوتها خافتا منهوكا:

- نبيل. أنا هنا في المستشفى منذ المساء. لم أعثر عليك في أي مكان. أمي.. فاجأتها نوبة قلبية. انها تموت... إلحقني يا نبيل..